نبضات من التجربة الروائية الشخصية

خناثة بنونة

بما أن الأدب حسب بعض الآراء هو من جملة الفنون التي ترتفع بمستوى الحياة والشعوب، وبما أنه أيضاً تعبير جد ذاتي، يحمل السمات الشخصية لتلك الذوات، فقد انطلق صوتي عنيفاً ممزقاً لكل الستر الخارجية، معانقاً الداخل والموضوع بحدة، راهناً نفسه للوقوف في الضفة الاخرى من كل ما لا يخدم الانسان في طرحه للاشكالات وتجاوزها، وارهاصاته بالمخاض العام للواقع، وذلك في التقاطه للحركات السفلية التي تبشر بالتغييرات المستقبلة.

كما أن انفجار الوعي على الهموم الكبيرة وعلى الدمار العام، في المؤسسات الرسمية والممارسة السياسية، البعيدة عن البناء الحقيقي للمعارك والشعوب، قد دفعني بعد رجة يونيه ٦٧ من القصة القصيرة الى رواية «النار والاختيار»،[1]، التي كانت صيحة رهيبة ضدّ هذا الفتك الماحق لجسدنا العربي محيطاً وخليجاً.

لهذا كان علي أن أكون أهلاً لحمل أنة ورفض ووجع وتطلع هاته الجموع، نحو البدائل التي ترهن المستقبل لتغيير حاسم، وذلك بالتعامل الفكري والإبداعي مع الارضية الواقعية لها، واستلهام بنيات التغيير من عناصره المتشابكة، وذلك بالتحاور معه في حركيته الجدلية من أجل تحطيم كل الاسس المشكلة له سابقاً.

ان ذلك التسجيل لتلك المرحلة، وأخذ موقف منها نظرياً وعملياً، بكل الطروحات الخاصة والعامة، قد جعل مفهومي الاجتماعي والسياسي، يفرض علي في نطاق سياق الحدث الروائي، أن أرفض أيضاً كل تقاليده وأخلاقيته في نظرته لأنثى، خصوصاً وأن النموذج المطروح آنذاك كان هو القلب دون القضية، أي المثقف دون أرضية نضالية واضحة.

وفي خضم ألْهَوْلِ العام، كان القلب العاري يعرض نفسه، يُمَوْضِعُ الانثى في إطار اجتماعي بال، يشيىء الانساني فيها ليدعوها الى زاوية ثرية المظهر قاتلة الشرايين، ليبعدها عن ساحة الصراع، وانما فحسب، ليجعلها هي وبشكل من الاشكال، تخون اختياراتها، ولهذا كانت (اللا) أمام هذا العرض هي الجواب الحاسم، رغم أن البطلة لم تكن تتمثل أية فلسفة بشكل نهائي أو أية ايديولوجية واضحة، ولكن الرفض للهزيمة ولكل شرائح الهزيمة ولجميع بنيات المجتمع المنهزم قد جعلها ترفض المثقف الذي فشل في انتمائه لبقية المؤسسات الاجتماعية، اضافة لفشله في تكوين مؤسسة الزواج على معايير اجتماعية لطبقة ما.

لكن حينما انتصب أمام البطلة التي تحمل هزيمة قومية، قلب، فلقد جعلها تتوقف: اذ في فترة يكتسحها الموت تنتصب حياة، تملك كل خصوبة الأرواء: فكراً وفهماً. لكن أين الممارسة؟ انه أحد أعمدة بعض الانظمة التي صنعت مِنَّا مهزومين من محيط لخليج: أبداً. فالعاطفة العاقلة هي أس من أسس التغيير المحلوم به ان القضايا الاخرى هي التي يجب أن تشغل القلب والعقل: البندُقية، العلم، الثقنية، الاعلام الصحيح من أجل القضاء على سياسة التبعية، خارجياً، وسياسة الابادة داخلياً لمحاكمة وادانة أوضاع مهزوزة، قد عرّت هزيمة يونيه زيفها في كل مجال.

ولهـذا قررت ترك العمـل النظري الصرف في مركز الدراسات، واختارت التدريس، لتستطيع أن تنتصر على الهزيمة فيها وفي النفوس والحضورات الشابة التي ستتعامل معها، لتقتلع منها كل أسباب الهزائم، فتقيم حواراً مع ما لها وما عليها من منطلق متبصر بواقعه الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي.

ورجوعاً وراءً قليلاً، فانني ومنذ أول انتاج، كنت قد حاولت عبر القصة، أن أتلمس قشرة الواقع من زاوية رؤية معينة، وفي شكل فني لم يتسم فيه الحدث أو الفعل بالتعقيد، وانما أيضاً بمحاولة إخضاع الواقع للفكر المجرد أحياناً، لكن أيضاً بالانتماء للارض ومحاولة تثبيت الاقدام، لمعايشة الواقع واستنطاق

(١) نظراً لظروف النشر بالمغرب. فقد نشرتها مع مجموعة قصصية تحمل نفس العنوان.

القوى المظلومة فيه، من أجل كشف زيفه وكشف مضمون ووعي مصحوبين بالتزام ما أيضاً.

وكما سبق،ففي محاولتي اخضاع الواقع للفكر المجرد فان ذلك نتيجة لعدم التقاطي للعالم أحياناً بوضوح، وإنما في نمطيته الخانقة، مع كل تلك الضربات القاتلة التي تنزل على الجسد الشعبي سياسياً واقتصادياً وفكرياً واجتماعياً.

لهذا كان الشعور بالاغتراب هو ملجأ ما بشكل من الاشكال، حيث لا قاعدة تكون بدءاً لفعل، يستطيع أن يكون مردوده خلاصاً من الانغمار في الحزن الميتافيزيقي.

ان الغرق في العالم الداخلي يعكس بشكل ما، فداحة هول العالم الخارجي في بناه وعلاقاته ونمطيته ورعب الانظمة فيه، لهذا اهتممت في مرحلة ما، بالتيارات الداخلية حيث يتكثف الشعور وتقل الاحداث دون الاهتمام كثيراً بالتفاصيل المادية. لكن مع ذلك كان الالتزام الحر عندي يقتضي صياغة الجوانب الشخصية مرتبطة بما هو موضوعي، انما مع غياب التركيز على الحالة الشعورية أكثر من الحدث كما هو الشأن إلى حد ما في الرواية الجديدة.

ومما ساعد على ذلك هو انصهار النماذج التي أطرحها في ناري الداخلية، حيث أتبناها لتصبح كأنها قضايا ذاتية ترتبط بما هو موضوعي ليتولد العمل الابداعي دون مسافة بيننا، مما يجعل الانفعالات والابحار داخل الاشياء والقضايا الفكرية ذات التوغل والعمق والرهافة لحد التلاشي، لها تأثير حاسم في المعمار الفني، وبهذا لا يتحرر النص الابداعي من سلطويتي، الشيء الذي لم أحسم فيه بشكل نهائي الى الآن، وذلك بإنجاز عمل ابداعي مستقل، ومتوفر على كل عناصر النجاح.

بالاضافة الى مسببات هذه الهيكلية، فان ايماني بأن الادب يجب أن لا يعكس الواقع بقدر ما يوقظ فينا آخر جديداً وذلك باعادة خلقه من نفس المواد، لكن برؤى جديدة وذلك ما دمنا لا نستطيع أن نتحرر من العالم، بل أن نعطيه عبرنا بحرارة وشوق، ليلج أمن القارىء وسلامه ليشعل في استكانته حريق التغيير، وبذلك يحقق مثل هذا العمل الابداعي موضوعيته.

ان الطبيعة جماد يكتب وجوده من رؤيتنا، هاته الرؤية التي لا يمكن الا أن تكون شخصية، لهذا فكل عمل ابداعي يحمل شارات مبدعه فكراً وشعوراً وبصراً وبصيرة عبر مواقفه من كل القضايا المحلية والقومية والانسانية، وبذلك ينعكس العالم الخارجي غالباً عندي ملتاعاً بضجة، أو همس حرون، باحثاً عن صورته الاخرى غير المشكلة في عالم الواقع، معوضاً عن بعض ما ينقصه من جزئيات الواقع، في الخلفية الفكرية لمثل هذا التناول، رافضاً اللبوس السردي العادي، شاحناً الكلمات بطاقة من الحيوات والتأثير، من أجل تجديد العبارات والكلمات والرؤية. ولهذا فانني استعمل أسلوب الجمل الشعرية القصيرة، تلك الجمل الدالة على معانٍ يمكن بسطها في فقرة أو أكثر، ولكنها عبارة عن طاقات مفجرة للواقع والفكر وأرضيتها، وبذلك فكأن السائر عبر السطور، ليسير فوق أرض دون أمان اطلاقاً، وانما فوق سلسلة من تفجرات متراصة تقتل أمن القارىء، وتدفعه للمشاركة في عملية التهديم والاتمام، حتى مرحلة بناء البديل الصحي.

ان اهمال الوصف الخارجي أعوضه أيضاً ببحث شرس في نفسية الاشخاص مع مرونة التعبير الشعري الموحي بانفعال وتوهج، الى جانب هذا يكون التداعي والمونولوج الداخلي من العناصر الهامة التي تقيم توازناً شبه متكامل بين العالمين الخارجي والداخلي، الشيء الذي لا يجعل من انتاجي أحياناً انعكاساً مضبوطاً لحيوات وأشخاص محددين، وانما هو لقطات لنماذج بشرية تعكس فكرة من الافكار التي تستقى طبعاً من يم الواقع المتلاطم.

وفي هذا السياق، سياق التجريب، الباحث عن بديل للشكل الجاهز، فانني أجهد من أجل أن اتحرر من البناء المعماري العام، بل وكما اجتهدت في رواية: (الغد والغضب) حيث جمعت روايتين في واحدة، كل واحدة ذات مضمون متفرد، يلتقيان ويبتعدان عبر محور متحرك سلباً وايجاباً، تطرح أولاهما إشكالا فكرياً فلسفياً هو نتيجة تأثير تعتيم الواقع عند مراهقة ذكية تعايش فترة ازدهار الفلسفة الوجودية، وبذلك فهي عبر كل سلسلة الاحداث التي تعايشها ولا تشدها، تبحث عن الارضية ذات المعنى التي تستطيع أن تجيب استفهامها الضخم عن نقطة البدء: أينها؟ في نفس الرواية تكون الصورة الايجابية لطالبة أخرى تستطيع أن توقف وعيها على حركة الواقع، وأن تأخذ منه موقفاً ثم حركة، فكأنها بشكل من الاشكال الوجه الآخر للبطلة السابقة، تلك التي تقول في نفسها مرة: « سلمى، حضوري الثاني »، لكنه الوجه الذي يبحث عنه عبر كل التخطيات والانجازات والتحطيمات والتجريب والابحار أيضاً وراء الظواهر والشكليات،

بينما تنطلق الرواية الثانية بشكل ملتزمٍ متعمق الوعي، مخططٍ لإنجاز ذلك الوعي عبر ممارسته مع مجموعة من الطلبة، الذين يتطور مفهومهم للواقع، ولمسؤولياتهم اتجاه هذا الواقع، من أجل تغييره عن طريق مشاركة القاعدة في تنويرها ودفعها إلى تبني دورها التاريخي، الى أن تلتقي الروايتان أخيراً بموت الاب (نموذج الماضي المحنط الغير الفاعل) وخروج كل العناصر في حركة جماعية ذات أرضية واقعية ودلالات فكرية: أي في مظاهرة شعبية، ثم تعقبها دعوة الى اجتماع يكون نقطة البدء في التخطيط الفكري والقاعدي للحركة المتخطية للنماذج المطروحة في الروايتين معاً، وإنما لحركة الشارع - الشوارع - عموماً.

ان تعدد الاصوات، وتعدد الارضيات، وتعدد الطروحات، وتعدد النظرات والنظريات، وتعدد زوايا الرؤية والفهم والاخذ، وتعدد الاطروحات وتعدد الابطال، وتداخل الازمنة واختلاف البناء في كل رواية، مع اختلاف المواصيع وتكاملها، هي ما حاولت أن أغير به الشكلية المتداولة في البناء الروائي. ففي الوقت الذي حاولت فيه هاته التعددية، فانني رغبت في تجميع أكثر ما يمكن من الواقع، الاستحواذِ عليه وسجنه في بحبوحة الكلمات، لأعطي أكبر عدد من الشرائح الاجتماعية

والفكرية التي تعكس مرحلة تاريخية معينة.

لهذا فالبطل عندي أحياناً يثور ضد التأطير. فليس هو النموذج، أو النماذج المتعددة، ولكنه تلك الحركة المضطربة والمستقرة في آن واحد، التي تُكسب استمرارية العمل الابداعي خاصية الحياة في فوضاها المنظمة ونظامها الفوضوي، الذي يعكس أيضاً أحاسيس العصر في تناقضاتها وعدميتها وصراعاتها واحتياجاتها واحزانها وتطلعاتها وجدواها مسجلاً للحقائق التي يراها الفنان ولو أنها غير متوافقة مع كل أشياء العالم، لأنه أي الفنان، هو سيد إبداعه، ومن ثم فهو المسؤول وحده عن نجاح أو عدم نجاح ما أراد ابلاغه من أجل البحث عن رعشة كل مخاض مستقبلي.

ومع ذلك، فليس نجاحه أو عدمه في هذا التجاوز هو السلسلة النهائية في حلقة التجريب. ان عملية الخلق أساساً تعني التجاوز. تجاوز ليس المحقق فحسب، بل المحلوم به أيضاً، في سلسلة اللهاث الدائب عن الآتي: بناء ومضموناً. وبذلك فان المبدع يقع أحياناً في إشكال بين أناه المبدعة وبينه كشخص، ثم بين ما يجب أن يعكسه كشخص نابع من الواقع أي كمنتج، وبين عطاء آخر يعكس عالماً ليس عالم الكثرة: لكنه مع ذلك مطالب باحداث التوازن الضروري بين الواقع والتخيل، بين الموضوعي والفكري المجرد، بين الآني واللانهائي.

ان من اشكالات اجتهاد المبدع أيضاً، اقتناعه هو أو غيره بمدى خدمة مسيرته للتحولات الاجتماعية. فهل من الضروري، وفق إشكاليات واقعنا المتعددة، الاتيان بعالم منتظم يكون مطمحاً لواقعنا، أو يجب خلخلة كل البنى والاشكالات وتفجير كل قائم شكلا ومحتوى من أجل نسف كل تواز؟

ان رصد التحولات وحمولات المستقبل وتاريخ الابادة المشرعة في وجه مجتمعاتنا سواء من الامبريالية الداخلية أو الخارجية، يضع المبدع في الواجهة ليكسر صلابة القيود عن خطو الجموع المنتظر، وبذلك فان دوره ريادي، أي يجب أن لا يتعقب مخاض الواقع وجدليته ليسجلها فحسب، بل أن يساهم أساساً في صنعها.

كما أن في داخل المبدأ تتصارع السماوات والارضين لتجعله يتصل وينفصل بالمجدي والعدمي في آن، نتيجة احتياره الأرعن أمام جبروت الكون وأسرار الوجود اللامتناهي التي ترميه في الوحدة واليتم، باحثاً عن الرضى واليقين... وأخيراً وبعد كل ما تقدم: بقي لي استفهامان أساسيان، هما:

أولاً: هل وفقت في ما أزمعت الامر عليه؟ هل عكست تجربتي الروائية (وكذا القصصية) مفهوماً للواقع وللعالم؟. هل تعاملت تعاملاً فكرياً مع أحداث واقعية؟ هل استطاعت كتابتي أن ترهص بالتحركات السفلية للقاعدة التي هي الرحم الخصب للفكر والحركة؟ هل زاوجت والى حد ما بين الفن والحدث؟ هل فجرت صرخة بعيدة المنطلق طويلة الصدى ضد هذا الاندحار الإبادي الذي يسحقنا داخلياً وخارجياً؟ هل عَرَّيْتُ هموماً تاريخية وأخرى فكرية؟ هل أسهمت في تحطيم البناء التقليدي وذلك بمحاولتي تجاوز النمطية السردية والبطل العادي وكذا التسلسل والشكل النمطي؟.

أكيداً أنني حاولت.. لكن هل نجحت أم لا؟ ذلك ما لا أستطيع الاجابة عنه.

الاستفهام الثاني الذي لا أتحرر منه أبداً:

ذلك:هل الكتابةُ، في مثل واقعنا العربي ترف أم ضرورة؟ اذ رغم أن علاقتي بالكتابة أساساً وبدءاً كانت هي تبرير الوجود على الصعيد الذاتي، والمشاركة في التغيير على الصعيد الموضوعي، إلا أن الامية المتسلطة على الساحة العربية من جهة، وانسحاقنا بالهزائم المتعددة أمام فلسطين الصغيرة والكبيرة (الوطن العربي كله) فلسطين الذات وفلسطين الاعماق أيضاً، بكل ما تشكله من أبطال خيانتها محلياً وقومياً ودولياً، فانني لا أقتنع بالتبرير الذي انطلقت به أولاً في أول عناق لي حميمي بالكلمة، انني لم أعد قانعة بأن الكلمة قصصاً ورواية وشعراً هي سلاح التغيير فحسب، وانما في ربط الفعل بالكلمة ربطاً جدلياً يجعل للفعل الثوري المرتقب قاعدة فكرية ثورية.

روايات وقصص

سهيل ادريس

***

الحي اللاتيني

الخندق الغميق

اصابعنا التي تحترق

***

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب